

ألف ليلة وليلة

حكاية عبد الله بن فاضل عامل البصرة مع أخويه

حكاية عبد الله بن فاضل عامل البصرة مع أخويه

ومما يحكى أيضاً أيها الملك السعيد أن الخليفة هارون الرشيد تفقد خراج البلاد يوماً من الأيام فرأى خراج جميع الأقطار والبلاد جاء إلى بيت المال إلا خراج البصرة فإنه لم يأت في ذلك العام فتصب ديواناً لهذا السبب وقال علي بالوزير فحضر بين يديه فقال له أن خراج جميع الأقطار جاء إلى بيت المال إلا خراج البصرة فإنه لم يأت منه شيء فقال يا أمير المؤمنين لعل نائب البصرة حصل له أمر ألهاه عن إرسال الخراج فقال له أن مدة حضور الخراج عشرون يوماً فما عذره في هذه المدة حتى لم يرسل الخراج أو يرسل بإقامة العذر فقال له يا أمير المؤمنين أن شئت أرسلنا إليه رسولا فقال أرسل له أبا اسحق الموصلي النديم فقال: سمعاً وطاعة لله ولك يا أمير المؤمنين.

ثم أن الوزير جعفر نزل إلى داره وأحضر أبا اسحق الموصلي النديم وكتب له خطاً شريعاً، وقال له امض إلى عبد الله بن فاضل مدينة البصرة وانظر ما الذي ألهاه عن إرسال الخراج ثم تسلم منه خراج البصرة بالتمام والكمال واثنتي به سريعاً فإن الخليفة تفقد خراج الأقطار فوجده قد وصل إلا خراج البصرة وأن رأيت الخراج غير حاضر واعتذر إليك بعذر فهاته معك ليخبر الخليفة بالعذر من لسانه فأجاب بالسمع والطاعة وأخذ خمسة آلاف فارس من عسكر الخليفة وسافر حتى وصل إلى مدينة البصرة فعلم بقدمه عبد الله بن فاضل فخرج بعسكره إليه ولاقاه ودخل به البصرة وطلع به قصره وبقية العسكر نزلوا في الخيام خارج البصرة وقد عين لهم ابن الفاضل جميع ما يحتاجون إليه ولما دخل أبو اسحق الديوان وجلس على الكرسي أجلس عبد الله بن فاضل بجانبه وجلس الأكاير حوله على قدر مراتبهم. ثم بعد السلام قال له ابن فاضل يا سيدي هل لقدومك علينا من سبب قال نعم إنما جئت لطلب الخراج فإن الخليفة سأل عنه ومدة وروده قد مضت فقال يا سيدي يا ليتك ما تعبت ولا تحملت مشقة السفر فإن الخراج حاضر بالتمام والكمال وقد كنت عازماً أن أرسله في غد ولكن حيث أتيت فأنا أسلمه إليك بعد ضيافتك ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أحضر الخراج بين يديك ولكن وجب علينا الآن أننا نقدم إليك هدية من بعض خيرك وخير أمير المؤمنين فقال لا بأس بذلك، ثم أنه فض الديوان ودخل به قصرًا في داره ليس له نظير ثم قدم له ولأصحابه سفرة الطعام فأكلوا وشربوا وتلذذوا وطربوا ثم رفعت المائدة وغسلت الأيدي وجاءت القهوة والشربات وقعدوا في المنادمة إلى ثلث الليل، ثم فرشوا له سريرًا من العاج مرصعًا بالذهب الوهاج فنام عليه ونام نائب البصرة على سرير آخر بجانبه فغلب السهر على ابن اسحق رسول أمير المؤمنين وصار يفكر في بحور الشعر والنظام لأنه من خواص ندماء الخليفة وكان له باعٌ عظيمٌ في الأشعار ولطائف الأخبار ولم يزل سهراناً في إنشاد الشعر إلى نصف الليل فيبينما هو كذلك وإذا بعبد الله بن فاضل قام وشد حزامه وفتح دولاباً وأخذ منه سوطاً وأخذ شمعةً مضيئةً وخرج من باب القصر وهو يظن أن أبا اسحق نائم.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الثالثة والسبعين بعد التسعمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن عبد الله بن فاضل لما خرج من باب القصر وهو يظن أن أبا اسحق النديم نائمًا فلما خرج تعجب أبو اسحق وقال في نفسه إلى أين يذهب عبد الله بن فاضل بهذا السوط فلعل مراده أن يعذب أحداً ولكن لا بد لي من أن أتبعه وانظر ما يصنع في هذه الليلة ثم أن أبا اسحق قام وخرج وراءه قليلاً قليلاً بحيث أنه لم يره فرأى عبد الله فتح خزانه وأخرج منها مائدةً فيها أربعة أصحن من الطعام وخبزاً وقلعةً فيها ماءٌ ثم أنه حمل المائدة والقلعة ومشى فتيبه أبو اسحق مستخفياً إلى أن دخل قاعة فوقف أبو اسحق خلف باب القاعة من داخل وصار ينظر من خلال ذلك الباب فرأى هذه القاعة واسعة ومفروشة فرشاً فاخراً وفي وسط القاعة سريرٌ من العاج مصفحٌ بالذهب الوهاج وذلك السرير مربوطٌ فيه كلبان في سلسلتين من الذهب ثم أنه رأى عبد الله حط المائدة على جانب في مكان وشمر عن أيديه وفك الكلب الأول فصار يتلوى في يده ويضع وجهه في الأرض كأنه يقبل بين يديه ويعوي عواءً خفيفاً بصوتٍ ضعيفٍ ثم أنه كتفه ورماه في الأرض وسحب السوط ونزل به عليه وضربه ضرباً وجيعاً من غير شفقة وهو يتلوى بين يديه ولا يجد له خلاصاً ولم يزل يضربه بذلك السوط حتى قطع الأنين وغاب عن الوجود ثم أنه أخذه وربطه في مكانه وبعد ذلك أخذ الكلب الثاني وفعل به كما فعل بالأول ثم أنه أخرج محرمةً وصار يسمح لهما دموعهما ويأخذ بخاطرهما ويقول لا تؤاخذني والله ما هذا بخاطري ولا يسهل علي ولعل الله يجعل لكما من هذا الضيق فرجاً ومخرجاً ويدعوا لهما وحصل كل هذا وأبو اسحق النديم واقفٌ يسمع بأذنه ويرى بعينه وقد تعجب من هذه الحالة ثم أنه قدم لهما سفرة الطعام وصار يلقيهما بيده حتى شبعوا ومسح لهما أفواههما وحمل القلعة وسقاها وبعد ذلك حمل المائدة والقلعة والشمعة وأراد أن يخرج فسبقه أبو اسحق وجاء إلى سريره ونام ولم يعرف أنه تبعه وأطلع عليه ثم أن عبد الله وضع السفرة والقلعة في الخزانه ودخل القاعة وفتح الدولاب ووضع السوط في محله وقلع حوائجه ونام هذا ما كان من أمره.

وأما ما كان من أمر أبي اسحق فإنه بات بقية تلك الليلة يفكر في شأن هذا الأمر ولم يأتَهُ نومٌ من كثرة العجب وصار يقول في نفسه يا ترى ما سبب هذه القضية ولم يزل يتعجب إلى الصباح ثم قاموا وصلوا الصبح ووضع لهم الفطور فأكلوا وشربوا القهوة وطلعوا إلى الديوان واشتغل أبو اسحق بهذه النكته طول النهار ولكنه كتمها ولم يسأل عبد الله عنها وثاني ليلة فعل بالكلبتين كذلك فضربهما ثم صالحهما وأطعمهما وسقاها وتبعه أبو اسحق فرآه فعل بهما كأول ليلة وكذلك ثالث ليلة. ثم أنه أحضر الخراج إلى أبي اسحق النديم في رابع يوم فأخذه وسافر، ولم يزل مسافراً حتى وصل إلى مدينة بغداد وسلم الخراج إلى الخليفة ثم أن الخليفة سأله عن سبب تأخير الخراج فقال له يا أمير المؤمنين رأيت عامل البصرة قد جهز الخراج وأراد إرساله ولو تأخرت يوماً لقابلني في الطريق ولكن رأيت من عبد الله بن فاضل عجباً عمري ما رأيت مثله يا أمير المؤمنين فقال الخليفة وما هو يا أبا اسحق قال رأيت ما هو كذا وكذا وأخبره بما فعله مع الكلبين وقال رأيت ثلاث ليالٍ متوالياتٍ وهو يعمل هذا العمل فيضرب الكلبين وبعد ذلك يصلحهما ويأخذ بخاطرهما ويعطعهم ويسقيهما وأنا أفرج عليه بحيث لا يراني فقال له الخليفة فهل سألته عن السبب فقال له وحياة رأسك يا أمير المؤمنين فقال الخليفة يا أبا اسحق أمرتك أن ترجع إلى البصرة وتأتيني بعبد الله بن فاضل وبالكلبين.

فقال يا أمير المؤمنين دعني من هذا فإن عبد الله بن فاضل أكرمني إكراماً زائداً وقد أطلعت على هذه الحالة اتفاقاً من غير قصد فأخبرتكم بها فكيف أرجع إليه وأجيب به فإن رجعت إليه لا ألقى لي وجه حياءٍ منه فاللائق إرسال غيري إليه بخط يدك فيأتيك به وبالكلبين فقال له أن أرسلت له غيرك ربما ينكر هذا الأمر ويقول ما عندي كلابٌ وأما إذا أرسلتكم أنت وقلت له أي رأيك بعيني فإنه لا يقدر على إنكار ذلك، فلا بد من ذهابك إليه وأتيانك به وبالكلبين وإلا فلا بد من قتلك.

فقال له أبو اسحق سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين وحسبنا الله ونعم الوكيل وصدق من قال آفة الإنسان من اللسان فأنا الجاني على نفسي حيث أخبرتك ولكن اكتب خطأ شريفاً وأنا ذاهب إليه وأتيك به فكتب له خطأ شريفاً وتوجه به إلى البصرة فلما دخل على عامل البصرة قال له كفانا الله سبب رجوعك يا أبا اسحق فما لي أراك رجعت سريعاً لعل الخراج ناقصٌ فلم يقبله الخليفة فقال يا أمير عبد الله ليس رجوعي من أجل نقص الخراج فإنه كاملٌ وقبله الخليفة ولكن أرجو منك عدم المؤاخذه فأني أخطأت في حقك وهذا الذي وقع مني مقدرٌ من الله تعالى، فقال له وما وقع منك يا أبا اسحق أخبرني فأنتك حبيبي وأنا لا أؤخذك فقال له اعلم أنني لما كنت عندك أتبعتك ثلاث ليالٍ متوالياتٍ وأنت تقوم كل ليلة في منتصف الليل وتعذب الكلاب وترجع فتعجبت من ذلك واستحيت أن أسألك عنه.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الرابعة والسبعين بعد التسعمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن أبو اسحق قال لعبد الله لما رأيت عذابك للكلبين استحيت أن أسألك عنه وقد أخبرت الخليفة خبرك اتفاقاً من غير قصدٍ فالزمني بالرجوع إليك وهذا خط يده ولو كنت أعلم أن الأمر يحوج إلى ذلك ما كنت أخبرته ولكن جرى القدر بذلك وصار يعتذر إليه فقال له حيث أخبرته فأنا أصدق خبرك عنده لئلا يظن بك الكذب فأنتك حبيبي ولو أخبره غيرك كنت أنكرت ذلك وكذبتة فيها أنا أروح معك، وأخذ الكلبين معي ولو كان في ذلك تلف نفسي وانقضاء أجلي فقال له الله يستترك كما سترت وجهي عند الخليفة، ثم أنه أخذ هدية تليق بالخليفة وأخذ الكلبين في جنازير من الذهب وحمل كل كلبٍ على جملٍ وسافروا إلى أن وصلوا إلى بغداد ودخلوا على الخليفة فقبل الأرض بين يديه فأذن له بالجلوس وأحضر الكلبين بين يديه فقال الخليفة ما هذان الكلبان يا أمير عبد الله فصار الكلبان يقبلان الأرض بين يديه ويحركان أذناهما ويبيكان كأنهما يشكوان له.

فتعجب الخليفة من ذلك وقال له أخبرني بخبر هذين الكلبين وما سبب ضربك لهما وإكرامهما بعد الضرب. فقال له: يا خليفة ما هذان كلبان وإنما هما رجلان شابان ذو حسن وجمال وقد واعتدالٍ وهما أخواري وولدا أمني وأبي فقال الخليفة وكيف كانا آدميين وصارا كلبين، قال أن أذنت لي يا أمير المؤمنين أخبرك بحقيقة الخبر، فقال أخبرني وإياك الكذب فإنه صفة أهل النفاق وعليك بالصدق فإنه سفينة النجاة وشيعة الصالحين فقال له أعلم يا خليفة الله أني إذا أخبرتك بخبرهما يكونان هما الشاهدان علي فإن كذبت يكذباني وأن صدقت يصدقاني. فقال له هذان من الكلاب لا يقدران على نطق ولا جوابٍ فيكف يشهدان لك أو عليك، فقال لهما يا أخواري إذا أنا تكلمت كلاماً كذباً فارقوا رؤوسكما وحملقا أعينكما وإذا تكلمت صدقاً فنكسا رؤوسكما وغمضا أعينكما، ثم أنه قال أعلم يا خليفة الله أنا نحن ثلاثة أخوة أمنا واحدة وأبونا واحد وكان اسم أبينا فاضل وما سمي بهذا الاسم إلا لكون أمه وضعت ولدين توأمين في بطنٍ واحدٍ فمات أحدهما لوقت وساعته وفضل الثاني فسماه أبوه فاضلاً ثم رباه

وأحسن تربيته إلى أن كبر فزوجه أمنا ومات فوضعت أخي هذا أولاً فسماه منصوراً وحملت ثاني مرة ووضعت أخي هذا فسماه ناصراً وحملت ثالث مرة ووضعتني فسماني عبد الله وربانا حتى كبرنا وبلغنا مبلغ الرجال فمات وخلف لنا بيتاً ودكاناً ملأته قماشاً ملوناً من سائر أنواع القماش الهندي والرومي والخراساني وغير ذلك وخلف لنا ستين ألف دينار.

فلما مات أبونا غسلناه وعلنا له مشهداً عظيماً ودفناه وذهب لرحمة مولاه وعلنا له عتاقة وعتامت وتصدقنا عليه إلى تمام الأربعين يوماً، ثم أني بعد ذلك جمعت التجار وأشراف الناس وعملت لهم يوماً عظيماً، وبعد أن أكلوا قلت لهم: يا تجار أن الدنيا فانية والآخرة باقية وسبحان الدائم بعد فناء خلقه، هل تعلمون لأي شيء جمعتكم في هذا اليوم المبارك عندي؟ قالوا سبحان علام الغيوب، فقلت لهم أن أبي مات عن جملة من المال وأنا خائف أن يكون عليه تبعه لأحد من دين أو رهن أو غير ذلك ومرادي تخليص ذمة أبي من حقوق الناس فمن كان له عليه شيء فليقل أن لي عليه كذا وكذا وأنا أورده لأجل براءة ذمة أبي.

فقال لي التجار: يا عبد الله أن الدنيا لا تغني عن الآخرة ولسنا أصحاب باطل وكل منا يعرف الحلال والحرام ونخاف من الله تعالى ونتجنب أكل مال اليتيم ونعلم أن أباك رحمة الله عليه كان دائماً يبقى ماله عند الناس ولا يخلي في ذمته شيئاً إلى أحد ونحن كنا دائماً نسمعه وهو يقول أنا أخاف من متاع الناس دائماً كان يقول في دعائه: ألهي أنت ثقتي ورجائي فلا تمنني وأنا مديون، وكان من جملة طباعه أنه إذا كان لأحد عليه شيء فإنه يدفعه إليه من غير مطالبة وإذا كان له على أحد شيء فإنه لا يطالبه ويقول له على مهلك، وأن كان فقيراً يسامحه ويبري ذمته وأن لم يكن فقيراً ومات يقول سامحه الله مما لي عنده، ونحن كلنا نشهد أنه ليس لأحد عنده شيء، فقلت: بارك الله فيكم.

ثم أني التفت إلى أخوتي وقلت لهما: يا أخوتي أن أبانا ليس عليه لأحد شيء وقد أبقى لنا هذا المال والقماش والبيت والدكان ونحن ثلاثة أشقاء كل واحد منا يستحق ثلث هذا الشيء فهل نتفق على عدم القسمة ويستمر مالنا مشتركاً بيننا ونأكل ونشرب سواءً أو نقتسم القماش والأموال ويأخذ كل واحد منا حصته فأبياً إلا القسمة، ثم التفت إلى الكلبين وقال لهما: هل جرى ذلك يا أخوتي؟ فنكسا رؤوسهما وغمضا عيونهما كأنهما قالوا نعم، ثم أنه قال: فأحضرت قساماً من طرف القاضي يا أمير المؤمنين فقسم بيننا المال والقماش وجميع ما تركه لنا أبونا وجعلوا البيت والدكان من قسمي في نظير بعض ما استحقه من الأموال ورضينا بذلك وصار البيت والدكان في قسمي وهما نالا قسمهما مالاً وقماشاً، ثم أني فتحت دكاناً ووضعت فيه القماش واشترت بجانب من المال الذي نلته زيادة على البيت والدكان قماشاً حتى ملأت الدكان وقعدت أبيع واشترت.

وأما شقيقي فأنتهما اشتريا قماشاً واكتريا مركباً وسافرا في البحر إلى بلاد الناس فقلت الله يساعدهم وأنا رزقي يأتيهم وليس للراحة قيمة ودمت على ذلك مدة سنة كاملة ففتح الله علي وصرت اكسب مكاسب كثيرة حتى صار عندي مثل الذي تركه لنا أبونا.

فاتفق لي يوماً من الأيام أنني كنت جالساً في الدكان وعلي فروتان أحدهما سمورأت والثانية سنجاب لأن ذلك الوقت كان في فصل الشتاء في أوان اشتداد البرد، فبينما أنا كذلك وإذا بشقيقي قد أقبلنا وعلى بدن كل منهما قميص من غير زيادة وشفاهما ينتفضان من البرد، فلما رأيتهما عسر علي ذلك وحزنت عليهما.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الخامسة والسبعين بعد التسعمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن عبد الله بن فاضل لما قال للخليفة فلما رأيتهما ينتفضان عسر علي ذلك وطار عقلي من رأسي ففقت إليهما واعتنقتهما وبكيت علي حالهما وألقيت علي واحد منهما الفروة والسمور وعلي الثاني الفروة والسنجاب وجئت بهما إلى الحمام وأرسلت إلي كل واحد منهما في الحمام بدلة تاجر ألفي وبعد ما اغتسلا لبس كل واحد بدلته ثم أخذتهما إلى البيت فرأيتهما في غاية الجوع فوضعت لهما سفرة الأطعمة فأكلا وأكلت معهما ولاطفتهما وطيبت بخاطرهما.

ثم التفت إلى الكلبين وقال لهما: هل جرى ذلك يا أخوتي، فنكسا رأسيهما وعضا عيونهما ثم أنه قال يا خليفة الله، ثم أني سألتهما وقلت لهما ما الذي جرى لكما فقال: سافرنا في البحر ووصلنا مدينة تسمى الكوفة وصرنا نبيع قطعة القماش التي ثمنها علينا نصف دينار بعشرة دنانير والتي بدينار بعشرين ديناراً واكتسبنا مكاسب عظيمة واشترينا من قماش العجم شقة الحرير بعشرة دنانير وهي تساوي في البصرة أربعين ديناراً، وذهبنا لمدينة تسمى الكرخ فبعنا واشترينا وكسبنا مكاسب كثيرة وصار عندنا أموالاً كثيرة، وجعلنا يذكران لي أحوال

البلاد والمكاسب، فقلت لهما حيث رأيتهما هذا الفرج والخير فمالي أراكما رجعتما عربانيين، فتنهدا وقالوا: ما حل بنا إلا عينٌ صائبةٌ والسفر ما له أمان، فلما جمعنا تلك الأموال والخيرات وسقنا متاعنا في مركب وسافرنا في البحر بقصد التوجه إلى مدينة البصرة وقد سافرنا ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع رأينا البحر قام وقعد وأرغى وأزيد وتحرك وهاج وتلاطم بالأمواج وصار الموج يقدح الشرر كلهيب النار وهاجت علينا الأرياح والتطم بنا المركب في سن جبل فانكسر وغرقنا وراح جميع ما كان معنا في البحر وصرنا نخبط على وجه الماء يوماً وليلةً فأرسل الله لنا مركباً آخر فأنقذ الركاب وأنقذنا وسافرنا من بلاد إلى بلاد ونحن نسأل ونتقوت مما نحصله بالسؤال وقاسينا الكرب العظيم وصرنا نبيع من حوائجنا ونتقوت لغاية قربنا من البصرة حتى شربنا ألف حسرةٍ ولو كنا سلمنا بما كان معنا كنا أتينا بأموالٍ تضاهي أموال الملك ولكن هذا مقدرٌ من الله علينا. فقلت لهما: يا أخوتي لا تحزننا فإن المال فداء الأبدان والسلامة غنيمَةٌ وحيث كتبكم الله من السالمين فهذه غاية المني وما الفقر والغنى إلا كطيف خيال.

ثم قلت: يا أخوتي نحن نقدر أن أبانا قد مات في هذا اليوم وأورثنا هذا المال الذي عندي وقد طبابت نفسي على أن نقسمه بيننا بالسوية، ثم أحضرت قساماً من طرف القاضي وأحضرت له جميع مالي فقسمه بيننا وأخذ كلُّ منا ثلث المال، فقلت لهما يا أخوتي بارك الله للإنسان في رزقه إذا كان في بلده فكل واحد منكما يفتح له دكاناً ويقعد فيه لتعاطي الأسباب والذي له شيءٌ في الغيب لا بد أن يحصله.

ثم سعيت لكل واحدٍ منهما في فتح دكانٍ وملأته له بالبيضائع وقلت لهما بيعا واشترى واحفظا أموالكما ولا تصرفا منها شيئاً وجميع ما يلزم لكما من أكلٍ وشربٍ وغيرهما يكون من عندي، ثم قمت بإكرامهما وصارا يبيعان ويشتريان في النهار وعند المساء يبيتان في بيتي ولم أدعهما بصرفان شيئاً من أموالهما، وكلما جلست معهما للحديث يمدحان الغربة ويذكران محاسنها ويصفان ما حصل لهما فيها من المكاسب ويغرياني على أن أوافقهما على التغريب في بلاد الناس، ثم قال للكليين هل جرى ذلك يا أخوتي فنكسا رؤوسهما وأغمضا أعينهما تصديقاً له. ثم قال: يا خليفة الله فما زالا يرغباني ويذكران لي كثرة الربح والمكاسب في الغربة ويأمراني بالسفر معهما حتى قلت لهما لا بد أن أسافر معكما من أجل خاطركما، ثم أني عقدت الشراكة بيني وبينهما وحملنا قماشاً من سائر الأصناف النفيسة وأكثرينا مركباً وشحناه بالبيضائع من أنواع المتاجر وأنزلنا في ذلك المركب جميع ما نحتاج إليه ثم سافرنا من مدينة البصرة في البحر العجاج المتلاطم بالأمواج الذي الداخِل فيه مفقودٌ والخارج منه مولودٌ، وما زلنا مسافرين حتى طلعنا إلى مدينةٍ من المدائن فبعنا واشترينا وظهر لنا كثرة المكسب، ثم رحنا منها إلى غيرها، ولم نزل نرحل من بلدٍ إلى بلدٍ ومن مدينةٍ إلى مدينةٍ ونحن نبيع ونشترى ونربح حتى صار عندنا مالٌ جسيمٌ وربحٌ عظيمٌ. ثم أننا وصلنا إلى جبلٍ فألقى الرئيس المرساة وقال لنا: يا ركاب اطلعوا إلى البر تنجوا من هذا اليوم وفتشوا فيه لعلكم تجدون ماءً، فخرج كل من في المراكب وذهبت، أنا بجملتهم وصرنا نفتش على الماء وتوجه كلُّ منا في جهةٍ وصعدت أنا إلى أعلى الجبل، فبينما أنا سائرٌ إذا رأيت حيةً بيضاء تسعى هاربةً ووراءها ثعبانٌ أسود يسعى وراءها وهو مشوه الخلقة هائل المنظر، ثم أن الثعبان لحقها وضايقها ومسكها من رأسها ولف ذيله على ذيلها فصاحت فعرفت أنه مفترٍ عليها فأخذتني الشفقة عليها وتناولت حجراً من الصوان قدر خمسة أرتالٍ وضربت به الثعبان فجاء على رأسه فدقه، فلم أشعر إلا والحية انقلبت وصارت بنتاً شابةً ذات حسن وجمال وكمالٍ وقد واعتدالٍ كأنها البدر المنير.

فأقبلت علي وقبلت يدي ثم قالت لي استرني الله يسترك ستراً من العار في الدنيا وسترٌ من النار في الآخرة يوم الموقف العظيم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، ثم قالت: يا إنسي أنت سترت عرضي وصار لك الجميل ووجب الجزاء لك.

ثم أشارت بيدها إلى الأرض فانشفقت ونزلت فيها ثم انطبقت عليها الأرض فعرفت أنها من الجن. وأما الثعبان فإن النار أتت عليه وأحرقته وصار رماداً فتعجبت من ذلك، ثم أني رجعت إلى أخواتي وأخبرتهم بما رأيت وبتنا تلك الليلة، وعند الصباح قلع الرئيس الخطاف ونشر القلوع وطوى الأطراف ثم سافر حتى غاب البر عنا. ولم نزل مسافرين مدة عشرين يوماً ولم نر برأً ولا طيراً وافرغ ماؤنا فقال الرئيس: يا ناس أن الماء الحلوة قد فرغت منا فقلنا نطلع البر لعلنا نجد ماء، فقال: أني تهت عن الطريق ولا أعرف طريقاً يؤدينا إلى جهة البر، فحصل لنا غمٌ شديدٌ وبكينا ودعونا الله تعالى أن يهدينا إلى الطريق، ثم بتنا تلك الليلة في أسوأ حال. فلما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح رأينا جبلاً عالياً، فلما رأينا ذلك الجبل فرحنا واستبشرنا به، ثم أننا وصلنا إلى ذلك الجبل فقال الرئيس: يا ناس اطلعوا البر حتى نفتش على ماءٍ فطلعنا كلنا نفتش على ماءٍ فلم نر فيه ماءً فحصل لنا مشقةٌ بسبب قلة وجود الماء، ثم أني صعدت إلى أعلى الجبل فرأيت وراءه دائرةً واسعةً مسافة سير ساعةٍ وأكثر فناديت أصحابي فأقبلوا علي فلما أتوا قلت لهم: انظروا إلى هذه الدائرة التي وراء هذا الجبل فأني أرى فيها مدينةً عاليةً البنيان مشيدة الأركان ذات أسوارٍ وبروجٍ وروابيٍ ومروجٍ وهي من غير شكٍ

لا تخلو من الماء والخيرات فسيروا بنا نمضي إلى هذه المدينة ونجىء منها بالماء والخيرات، ونشتري ما يلزم من الزاد واللحم والفاكهة ونرجع.

فقالوا: نخاف أن يكون أهل المدينة كفاراً مشركين أعداء الدين فيقبضوا علينا ونكون أسرى بين أيديهم أو يقتلونا ونكون قد تسببنا في قتل أنفسنا في التهلكة والمغرور غير مشكور لأنه على خطر من الأهواء، فنحن لا نضحى بأنفسنا.

فقلت لهم: يا ناس لا حكم لي عليكم ولكن أخذ أخوي وأتوجه إلى هذه المدينة، فقالا لي أخوأي: نحن نخاف من هذا الأمر ولا نروح معك فقلت: أما أنا فقد عزمت على الذهاب إلى هذه المدينة وتوكلت على الله ورضيت بما قدره الله، فانتظراني حتى أذهب إليها وأرجع إليكما.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة السادسة والسبعين بعد التسعمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن عبد الله قال فانتظراني حتى اذهب إليها وأرجع إليكما، ثم تركتهما ومشيت حتى وصلت إلى باب المدينة فرأيتها مدينة عجيبة البناء غريبة الهندسة أسوارها عالية وأبراجها محصنة وقصورها شاهقة وأبوابها من الحديد الصيني وهي مزخرفة منقوشة تدهش العقول، فلما دخلت الباب رأيت دكة من الحجر ورأيت رجلاً قاعداً بها وفي ذراعه سلسلة من النحاس الأصفر وفي تلك السلسلة أربعة عشر مفتاحاً، فعرفت أن ذلك الرجل هو بواب المدينة والمدينة لها أربعة عشر باباً. ثم أتت دنوت منه وقلت له: السلام عليكم، فلم يرد علي السلام، فسلمت عليه ثانياً وثالثاً فلم يرد علي الجواب فوضعت يدي على كتفه وقلت له: يا هذا لأي شيء لا ترد علي السلام؟ هل أنت نائم أو أصم أو غير مسلم حتى تمنع رد السلام؟ فلم يجبني ولم يتحرك، فتأملت فيه فرأيته حجراً. فقلت أن هذا شيء عجيب، هذا الحجر مصور بصورة ابن آدم ولم ينقص عنه غير النطق. ثم تركته ودخلت المدينة فرأيت رجلاً واقفاً في الطريق فدنوت منه وتأملته فرأيته حجراً، قابلت امرأة عجوزاً على رأسها عقدة ثياب مهياة للغسيل فدنوت منها وتأملتها فرأيتها من الحجر والعقدة الثياب التي على رأسها من الحجر: ثم أتت السوق فرأيت زياتاً ميزانه منصوباً وقدامه أصناف البضائع من الجبن وغيره كل ذلك من الحجر، ثم أتت سائر المتسبين جالسين في الدكاكين وبعض الناس واقفاً وبعضهم جالساً، ورأيت نساءً وصبياناً وكل ذلك من الحجر.

ثم وصلت سوق التجار فرأيت كل تاجر جالساً في دكانه والدكان مملوءة بأنواع البضائع وكل ذلك من الحجر ولكن الأقمشة كنسيج العنكبوت، فصرت أتفرج عليها وصرت كلما مسكت ثوباً من القماش يصير بين يدي هباءً منثوراً، ورأيت صناديق ففتحت واحداً منهم فوجدت فيه ذهباً في أكياس، فأمسكت الأكياس فذابت في يدي والذهب لا يزال على حاله فحملت منه ما لا أطيعه وصرت أقول في نفسي: لو حضر أخوأي معي لأخذنا من الذهب كفايتهما وتمتعنا بهذه الجواهر التي لا أصحاب لها. وبعد ذلك أتيت دكاناً ثانياً فرأيت فيه أكثر من ذلك ولكن ما بقيت أقدر أن أحمل أكثر مما حملت.

ثم أتت ذهبت إلى سوق ثالث ثم منه إلى سوق رابع وهكذا ولا زلت أشاهد مخلوقات مختلفة وكلها من الحجارة حتى أن الكلاب والقطط كانت من الحجارة، ثم وصلت إلى سوق الصاغة فرأيت فيه رجلاً جالساً في الدكاكين والبضائع عندهم بعضها في أيديهم وبعضها في أقفاص، فلما رأيت ذلك يا أمير المؤمنين رميت ما كان معي من الذهب وحملت من المصاغ ما أطيق حمله، وانتقلت من سوق الصاغة إلى سوق الجواهر فرأيت الجوهريّة جالسين في دكاكينهم وقدام كل واحد منهم قفصٌ مملأٌ بأنواع المعادن كالياقوت والألماس والبلخش وغير ذلك من سائر الأصناف وأصحاب الدكاكين أحجاراً فرميت ما كان معي من المصاغ وحملت من الجواهر ما لا أطيق حمله وبقيت أنتدم حيث لم يكن أخوأي معي حتى يحملنا من تلك الجواهر ما أردنا. ثم أتت خرجت من سوق الجواهر فمررت على باب كبير مزخرف مزين بأحسن زينة ومن داخل الباب دكك وجالس على تلك الدكك خدمٌ وجندٌ وأعوانٌ وعساكرٌ وحكامٌ وهم لابسون أفخر الملابس وكلهم أحجار فلما منهم فتناثرت ملابسه على بدنه مثل نسيج العنكبوت، ثم أتت مشيت في ذلك الباب فرأيت سراية ليس لها نظير في بناتها وأحكام صنعها ورأيت في تلك السراية ديواناً مشحوناً من الذهب وبالأكابر والوزراء والأعيان والأمراء وهم جالسون على كراسي وكلهم أحجار، ثم أتت كرسياً حمراء مرصعة بالدر والجواهر وقد جلس فوقها آدمي عليه أفخر الملابس وعلى رأسه تاج كسروي مكلل بنفس الجواهر التي لها شعاع مثل شعاع النهار، فلما وصلت إليه رأيت من الحجر. ثم أتت توجهت من ذلك الديوان إلى باب الحريم ودخلت فيه فرأيت فيه ديواناً من النساء ورأيت في ذلك الديوان كرسياً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر والجواهر وقد جلست فوقها امرأةٌ وعلى رأسها تاجٌ مكللٌ بنفس الجواهر وحولها نساء مثل الأقمار جالسات على كراسي ولايسات أفخر الملابس

الملونة بسائر الألوان وواقف هناك طواشبية أيديهم على صدورهم كأنهم واقفون من أجل الخدمة وذلك الديوان يدهش عقول الناظرين مما فيه من الزخرفة وغريب النقش وعظيم الفرش ومعلق فيه أبهج التعاليق من البلور الصافي، وفي كل قدرة من البلور جوهرة يتيمة لا يفي بثمنها مال، فرميت ما معي يا أمير المؤمنين وصرت أخذ من هذه الجواهر وحملت منها على قدر ما أطيق وبقيت متحيراً فيما أحمله وفيما أتركه لأنني رأيت ذلك المكان كأنه كنز من كنوز المدن، ثم أني رأيت باباً صغيراً مفتوحاً وفي داخله سلالم فدخلت حتى وصلت إلى باب القصر فرأيت ستارة من الحرير مصفحة بشرائط من الذهب ومصفوف فيها اللؤلؤ والمرجان والياقوت وقطع الزمرد والجواهر فيه تضيء كضوء النجوم والصوت خارج من تلك الستارة فدنوت من الستارة ورفعتها فظهر لي باب قصر مزخرفٍ يحير الأفكار فدخلت من ذلك الباب فرأيت قصرًا كأنه كنزٌ على وجه الدنيا ومن داخله بنتٌ كأنها الشمس الضاحية في وسط السماء الصافية وهي لابسة أوفر الملابس ومتحلية بأنفس ما يكون من الجواهر من أنها بديعة الحسن والجمال بقدر واعتدالٍ وكمالٍ وخصرٍ نحيلٍ وردفٍ ثقيلٍ وريقٍ يشفي العليل وأجفان ذات اعتدال كأنها المرادة.

ثم أنه قال يا أمير المؤمنين لما رأيت تلك البنت شغفت بها حباً وتقدمت إليها فرأيتها جالسةً على مرتبةٍ عاليةٍ وهي تتلو كتاب الله عز وجل حفظاً عن ظهر قلبٍ وصوتها كأنه صرير أبواب الجنان إذا فتحها رضوان والكلام خارجٌ من بين شفتيها يتناثر كالجواهر ووجهها ببديع المحاسن زاه وزاهر.

فلما سمعت نغماتها في تلاوة القرآن العظيم وقد قرأ قلبي من فاتك لحاظها سلام قولاً من رب رحيم، تلجلجت في الكلام ولم أحسن السلام واندش مني العقل والنظر.

ثم تجلجت على هول الغرام وقلت لها: السلام عليك أيتها السيدة المصونة والجوهرة المكنونة آدم الله قوائم سعدك ورفع دعائم مجدك، فقالت و عليك السلام والتحية والإكرام يا عبد الله يا ابن فاضل أهلاً وسهلاً ومرحباً بك يا حبيبي وقرّة عيني. فقلت لها: يا سيدتي من أين علمت اسمي ومن تكوني أنت وما شأن أهل هذه المدينة حتى صاروا أحجار فمرادي أن تخبريني بحقيقة الأمر فأني تعجبت من هذه المدينة ومن أهلها ومن كونها لم يوجد فيها أحد إلا أنت فبإله عليك أن تخبريني بحقيقة ذلك على وجه الصدق فقالت لي: اجلس يا عبد الله وأنا أن شاء الله تعالى أحدثك وأخبرك بحقيقة أمري وبحقيقة أمر هذه المدينة وأهلها على التفصيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فجلست إلى جانبها فقالت لي: أعلم يا عبد الله يرحمك الله أنني بنت ملك هذه المدينة والدي هو الذي رأيتَه جالساً في الديوان على الكرسي العالي والذي حوله أكابر دولته وأعيان مملكته. وكان أبي ذا بطش شديد ويحكم على ألف ألف ومائة ألف وعشرين ألف جندي وعدة أمراء دولته أربعة وعشرون ألفاً كلهم حكام وأصحاب مناصب وتحت طاعته من المدن ألف مدينةٍ غير المدن والضيايح والحصون والقلاع والقرى وأمراء العربان الذين تحت يده ألف أمير، كل أمير يحكم على عشرين ألف فارس وعنده من الأموال والذخائر والمعادن والجواهر لا عين رأت ولا أذن سمعت.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة السابعة السبعين بعد التسعمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن بنت ملك مدينة الأحجار قالت: يا عبد الله أن أبي كان عنده من الأموال والذخائر ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وكان يقهر الملوك وبيده الأبطال والشجعان في الحرب وحومة الميدان وتخشاها الجبابرة وتخضع له الأكاسرة ومع ذلك كان كافراً مشركاً بالله يعبد الصنم دون مولاه وجميع عساكره كفاراً يعبدون الأصنام دون الملك العلام. فاتفق أنه كان يوماً من الأيام جالساً على كرسي مملكته وحوله أكابر دولته فلم يشعر إلا وقد دخل عليه شخص فأضاء الديوان من نور وجهه فنظر إليه أبي فرأه لابساً حلة خضراء وهو طويل القامة وأيديه نازلة إلى تحت ركبتيه وعليه هيبه ووقارٌ والنور يلوح من وجهه فقال لأبي يا باغي يا مقترني إلى متى وأنت مغرور بعبادة الأصنام وتترك عبادة الملك العلام، قل أشهد أن لا إله إلا الله أن محمداً عبده ورسوله وأسلم أنت وقومك ودع عنك عبادة الأصنام فأنها لا تنفع ولا تشفع ولا يعبد بحق إلا الله رافع السموات بغير عمد وباسط الأرضين رحمة للعباد فقال من أنت أيها الرجل الجاحد لعبادة الأصنام حتى تتكلم بهذا الكلام؟ أما تخشى أن تغضب عليك الأصنام؟ فقال له أن الأصنام حجار لا يضرني غضبها ولا ينفعني رضاها فأحضر لي صنمك الذي أنت تعبده وأمر كل واحدٍ من قومك يحضر صنمه فإذا حضر جميع أصنامكم فادعوهم ليغضبوا علي وأنا أدعوا ربي أن يغضب عليكم وتنتظرون غضب الخالق من غضب المخلوق فإن أصنامكم قد صنعتوها أنتم وتلبست بها الشياطين وهم الذين يكلمونكم من داخل بطون الأصنام فأصنامكم مصنوعة وإلهي صانع ولا يعجزه شيءٌ فإن ظهر لكم الحق

فأتبعوه وأن ظهر لكم الباطل فاتركوه فقالوا له انتنا ببرهان ربك حتى نراه، فقال انتوني ببراهين أربابكم فأمر الملك كل من كان يعبد ربا من الأصنام أن يأتي به فأحضر جميع العساكر أصنامهم في الديوان هذا ما كان من أمرهم.

وأما ما كان من أمري فأني كنت جالسة في داخل ستارة تشرف على ديوان أبي وكان ألي صنم من زمردة خضراء جسمه قدر جسم ابن آدم فطلبه أبي فأرسلته إليه في الديوان فوضعه في جانب صنم أبي وكان صنم أبي من الياقوت وصنم الوزير من جوهر الألماس.

وأما أكابر العساكر والرعية فبعض أصنامهم من البلخس وبعضها من العنبر وبعضها من المرجان وبعضها من العود القماري وبعضها من الأبنوس وبعضها من الفضة وبعضها من الذهب وكل واحد منهم له صنم على قدر ما تسمح به نفسه وأما رعاع العساكر والرعية فيضع أصنامهم من الصوان وبعضها من الخشب وبعضها من الفخار وبعضها من الطين وكل الأصنام مختلفة الألوان ما بين أصفر وأحمر وأخضر وأسود وأبيض. ثم قال ذلك الشخص لأبي ادع صنمك وهؤلاء الأصنام تغضب علي، فصفوا تلك الأصنام ديواناً وجعلوا صنم أبي على كرسي من الذهب وصنمي إلى جانبه في الصدر ثم رتبوا الأصنام كل منها في مرتبة صاحبه الذي يعبده وقام أبي وسجد لصنمه وقال له: يا إلهي أنت الرب الكريم وليس في الأصنام أكبر منك وأنت تعلم أن هذا الشخص أتاني طاعناً في ربوبتك مستهزئاً بك ويزعم أن له إلهاً أقوى منك ويأمرني بترك عبادتك ونعبد إلهه فأغضب عليه يا إلهي. وصار يطلب من الصنم والصنم لا يرد عليه جواباً ولا يخاطبه بخطاب. فقال يا إلهي ما هذه عادتك لأنك كنت تكلمني إذا كلمتك فما لي أراك ساكناً لا تتكلم هل أنت غافل أو نائم فانتبه وانصرتي وكلمني. ثم هزه فلم يتكلم ولم يتحرك من مكانه فقال ذلك الشخص لأبي ما لي أرى صنمك لا يتكلم؟ قال له: أظن أنه غافل أو نائم، فقال له عدو يا الله كيف تعبد إلهاً لا ينطق وليس له قدرة على شيء ولا تعبد إلهي الذي هو قريبٌ مجيبٌ وحاضرٌ لا يغيب ولا يغفل ولا ينام ولا تدركه الأوهام يرى ولا يرى وهو على كل شيء قدير وإلهك عاجزٌ لا يقدر على دفع الضرر عن نفسه وقد كان ملتبساً به شيطان رجيمٌ يضلك ويغويك وقد ذهب الآن شيطانه فأعبد الله وأشهد أنه لا إله إلا هو ولا معبود سواه وأنه لا يستحق العبادة غيره ولا خير إلا خيره وأما إلهك هذا فإنه لا يقدر على دفع الشر عن نفسه فكيف يقدر على دفعه عنك فانظر بعينك عجزه. ثم تقدم وصار يصكه على رقبته حتى وقع على الأرض فغضب الملك وقال للحاضرين أن هذا الجاحد قد صك إلهي فاقتلوه فأرادوا القيام ليضربوه فلم يقدر واحد منهم أن يقوم من مكانه فعرض عليهم الإسلام فلم يسلموا فقال أريكم غضب ربي فقالوا أرنا فبسط يديه وقال إلهي وسيدي أنت تقتي ورجائي فاستجب دعائي على هؤلاء القوم الفجار الذين يأكلون خيرك ويعبدون غيرك يا حق يا جبار يا خالق الليل والنهار أسألك أن تقلب هؤلاء القوم أحجاراً فأنت قادرٌ ولا يعجزك شيءٌ وأنت أعلى كل شيء قدير فمسخ الله أهل هذه المدينة أحجاراً وأما أنا فأني حين رأيت برهانه أسلمت وجهي لله فسلمت مما أصابهم ثم أن ذلك الشخص دنا مني وقال لي سبقت لك من الله السعادة والله في ذلك إرادةٌ وصار يعلمني وأخذت عليه العهد والميثاق وكان عمري سبع سنين في ذلك الوقت وفي هذا الوقت صار عمري ثلاثين عاماً ثم أني قلت له يا سيدي جميع ما في هذه المدينة وجميع أهلها صاروا أحجاراً بدعوتك الصالحة وقد نجوت أنا حين أسلمت على يديك فأنت شيخي فأخبرني باسمك ومدني بمددك وتصرف لي في شيء أقتات منه فقال لي اسمي أبو العباس الخضر ثم غرس لي شجرة من الرمان بيده فكبرت وأورقت وأزهرت وأثمرت مائة واحدة في الحال فقال كلي مما رزقك الله تعالى وأعبديه حق عبادته. ثم علمني شروط الإسلام وشروط الصلاة وطريق العبادة وعلمني تلاوة القرآن وصار لي ثلاثة وعشرون عاماً وأنا أعبد الله في هذا المكان وفي كل يوم تطرح لي هذه الشجرة رمانة فأكلها وأقتات بها من وقت إلى وقتٍ والخضر عليه السلام يأتيني كل جمعة وهذا الذي عرفني باسمك وبشرني بأنك سوف تأتيني في هذا المكان وقد قال لي إذا أتاك فأكرميه وأطيعي أمره ولا تخالفه وكوني له أهلاً ويكون لك بعلأ وذهبي معه حيث شاء فلما رأيتك عرفتك وهذا هو خبر هذه المدينة وأهلها والسلام ثم أنها أرنتني شجرة الرمان وفيها رمانة أكلت نصفها فما رأيت أحلى ولا أذكى ولا أطعم من تلك الرمانة ثم قلت لها لعلك رضيت بما أمرك به شيخك الخضر عليه السلام أن تكوني لي أهلاً وأكون لك بعلأ وتذهبي معي إلى بلادي وأمكت بك في مدينة البصرة فقالت نعم أن شاء الله تعالى فأني سمعته لقولك مطبوعة لأمرك من غير خلافٍ ثم أني أخذت عليها العهد الوثيق وأدخلتني إلى خزانة أبيها وأخذنا منها على قدر ما استطعنا جملةً وخرجنا من تلك المدينة ومشينا حتى وصلنا إلى أخواي فرأيتهما يفتشان علي فقالا لي أين كنت فأنتك أبطأت علينا وقلبتنا مشغولٌ عليك وأما رئيس المركب فإنه قال لي يا تاجر عبد الله أن الربح طاب لنا من مدةٍ وأنت عوقتنا عن السفر فقلت له لا ضرر في ذلك ولعل التأخير خيرٌ لأن غيابي لم يكن فيه غير الإصلاح، وقد حصل لي فيه بلوغ الأمال. ثم قلت لهم انظروا ما حصل لي في هذه الغيبة وفرجتهم على ما معي من الذخائر وأخبرتهم بما رأيت في مدينة الحجر وقلت لهم لو كنتم أطعموني ورحمت معي كان تحصل لكم من هذا شيءٌ كثيرٌ فقالوا له والله لو رحنا ما كنا نسترجي أن ندخل على ملك المدينة فقلت لأخواي لا بأس عليكما فالذي معي يكفيني جميعاً وهذا نصيبنا، ثم أني قسمت ما معي أقساماً على قد الجميع وأعطيت لأخواي والرئيس فأخذت مثل واحدٍ منهم وأعطيت ما تيسر للخدامين والنوتيه ففرحوا ودعوا

لي ورضوا بما أعطيته لهم إلا أخوأي فأنها تغيرت أحوالهما ولاحت عيونهما فلحظت أن الطمع تمكن منهما فقلت لهما يا أخوأي أظن أن الذي أعطيته لكما لم يفتكمما ولكن أنا أخوكما وأنتم أخوأي ولا فرق بيني وبينكما ومالي ومالكما شيء واحد وإذا مت لا يرثني غيركما وصرت أخذ بخاطرهما ثم أنزلت البنات في الغليون وأدخلتها في الخزانة وأرسلت لها شيئاً تأكله وقعدت أتحدث أنا وأخوأي فقلا لي يا أخانا ما مرادك أن تفعل بهذه البنات البديعة الجمال، فقلت لهما مرادي أن أكتب كتابي عليها إذا دخلت البصرة وأعمل فرحاً عظيماً وأدخل بها هناك فقال أحدهما يا أخي أعلم أن هذه الصبية بديعة الحسن والجمال وقد وقعت محبتها في قلبي فمرادي أن تعطيهما لي فأتزوج بها أنا وقال الثاني وأنا الآخر كذلك فأعطيهما لي لأتزوج بها فقلت لهما يا أخوأي أنها قد أخذت علي عهداً وميثاقاً أنني أتزوج بها فإذا أعطيتها واحداً منكما أكون ناقضاً للعهد الذي بيني وبينها وربما يحصل لها كسر خاطر لأنها ما أتت معي إلا على شرط أنني أتزوج بها فكيف أزوجهما لغيري وأما من جهة أنكما تحبانها فأنا أحبها أكثر منكما، وأنا وجدتها وكوني أعطيتها لواحد منكما هذا شيء لا يكون أبداً ولكن إذا دخلنا مدينة البصرة بالسلامة، انظر لكما بنتين من خيار بنات البصرة وأخطبهما لكما وأدفع المهر من مالي وأجعل الفرح واحداً وندخل نحن الثلاثة في ليلة واحدة وأعرضنا عن هذه البنات فأنها من نصيبي فسكتا وقد ظننت أنهما رضيا بما قلت لهما.

ثم أننا سافرنا متوجهين إلى أرض البصرة وصرت أرسل إليها ما تأكل وما تشرب وهي لا تخرج من خزانة المركب وأنا أنام بين أخوأي على ظهر الغليون ولم نزل مسافرين على هذه الحالة مدة أربعين يوماً حتى باننا لنا مدينة البصرة ففرحنا بإقبالنا عليها وأنا راكناً إلى أخوأي ومطمئنٌ بهما ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى فتمت تلك الليلة.

فبينما أنا مستغرق في النوم لم أشعر إلا وأنا محمول بين يدي أخوأي هذين واحداً قابض على سيقاني والآخر من يدي لكونهما اتفقا على تغريقي في البحر من شأن تلك البنات فلما رأيت روعي محمولا بين أيديهما قلت يا أخوأي لأي شيء تفعلان معي هذه الفعال فقلا يا قليل الأدب كيف تبيع خاطرنا ببنت فنحن نرميك في البحر من أجل ذلك ثم رموني فيه ثم أنه التفت إلى الكلبين وقال أحق ما قلته يا أخوأي أم لا. فنكسا رؤوسهما وصارا يعويان كأنهما يصدقان قوله فتعجب الخليفة من ذلك ثم قال يا أمير المؤمنين فلما رموني في البحر وصلت إلى القرار ثم نفضني الماء على وجه البحر فما شعرت إلا وطائرٌ كبيرٌ قدر الأدمي نزل علي وخطفني وطار بي في الجو الأعلى ففتحت عيني فرأيت روعي في قصر مشيد الأركان عالي البنيان منقوش بالنقوشات الفاخرة وفيه تعاليق الجواهر من سائر الأشكال والألوان، وفيه جوار واقفات واضعات الأيدي على الصدور وإذا بامرأة جالسة بينهن على كرسي من الذهب الأحمر مرصع بالدر والجوهر وعليها ملابس لا يقدر الإنسان أن يفتح عينه فيها من شدة ضياء الجواهر، وعليها حزامٌ من الجواهر لا يفي بثمنه مال وعلى رأسها تاج ثلاث دورات يحير العقول والأفكار ويخطف القلوب والأبصار ثم أن الطير الذي خطفني انتفض فصار صبية كأنها الشمس المضيئة فأمعنت النظر فيها فإذا هي التي كانت في الجبل بصفة حبة وكان الثعبان يقاثلها ولف ذيله على ذيلها وأنا حين رأيت الثعبان قهرها وغلب عليها قتلته بالحجر. فقالت لها المرأة التي هي جالسة على الكرسي لأي شيء جئت هنا بهذا الإنسي فقالت لها يا أمي أن هذا هو الذي كان سبباً في ستر عرضي بين بنات الجان فقالت لي هل تعرف من أنا؟ قلت لا، قالت: أنا التي كنت في الجبل الفلاني وكان الثعبان الأسود يقاثلني ويريد هتك عرضي وأنت قتلته فقلت إنما رأيت مع الثعبان حبة بيضاء، فقالت أنا التي كنت حبة بيضاء ولكن أنا بنت الملك الأحمر ملك الجان واسمي سعيدة وهذه الجالسة هي أمي واسمها مباركة زوجة الملك الأحمر والثعبان الذي كان يقاثلني ويريد هتك عرضي هو وزير الملك الأسود واسمه درفيل وهو قبيح الخلقه واتفق أنه لما رأني عشقتني ثم أنه خطبني من أبي فأرسل إليه أبي يقول له وما مقدارك يا قطاعة الوزراء حتى تتزوج بنات الملوك فاغتاظ من ذلك وحلف يميناً أنه لا بد أن يفضح عرضي كيداً في أبي وصار ينفقوا أثري، ويتبعني أينما رحنا ومراده أن يفضح عرضي وقد وقع بينه وبين أبي حروب عظيمة ومشقات جسيمة ولم يقدر عليه أبي لكونه جباراً مكاراً، ثم أن أبي كلما ضايقه وأراد أن يظفر به يهرب منه وقد عجز أبي وصرت أنا في كل يوم انقلب أشكالا وألواناً وكلما انقلبت في صفة ينقلب هو في صفة ضدها وكلما هربت إلى أرض يشم رائحتي يلحقني في تلك الأرض حتى قاسيت منه مشقة عظيمة، ثم انقلبت في صفة حبة وذهبت إلى ذلك الجبل فانقلب هو في صفة ثعبان وتبعني فيه فرقت في يده وعالجني وعالجته حتى اتبعني وركب علي وكان مراده يفعل بي ما مراده ويشتهي فأتيت أنت وضربته بالحجر فقتلته وأنا انقلبت بنتاً وأريتني روعي وقلت لك علي جميل لا يضيع إلا مع أولاد الزنا فلما رأيت أخوك فعلا بك هذه المكيدة، ورمياك في البحر بادرت إليك وخلصتك من الهلاك ووجب لك الإكرام من أمي وأبي ثم أنها قالت يا أمي أكرمي في نظير ما ستر عرضي.

فقلت مرحباً بك يا إنسي فأنتك فعلت معنا جميلاً وتستحق عليه الإكرام وأمرت لي ببديل كتورية تساوي جملة من المال وأعطتني جملة من الجواهر والمعادن، ثم أنها قالت خذوه وأدخلوه على الملك في الديوان فرأيت

جالساً على كرسي وبين يديه المرده والأعوان فلما رأيته زاغ بصري مما رأيته عليه من الجواهر فلما رأيته قام على الأقدام وقامت العساكر إجلالاً له ثم حياني ورحب بي وأكرمني غاية الإكرام وأعطاني مما عنده من الخيرات وبعد ذلك قال لبعض أتباعه خذوه إلى بنتي توصله إلى المكان الذي جاءت به منه فأخذوني وذهبوا بي إلى سعيدة ابنته فحملتني ثم طارت بي وبما معي من الخيرات هذا ما كان من أمري وأمر سعيدة وأما ما كان من أمر ريس الغليون فإنه أفاق على الخيطة حين رموني في البحر فقال ما الذي وقع في البحر فيكي أخواي وصار يخبطان على صدورهما ويقولان يا ضبيعة أخبنا فإنه أراد أن يزيل ضرورة في الغليون فوقع في البحر ثم أنهما وضعا أيديهما على مالي ووقع بينهما الإختلاف من جهة البنات وصار كل واحد منهما يقول ما يأخذها غيري واستمرا على الخصام مع بعضهما ولم يتذكروا أخاهما ولا غرقه وزال حزنهما عليه، فبينما هما في هذا الحالة وإذا بسعيدة نزلت في وسط الغليون.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الثامنة والسبعين بعد التسعمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن عبد الله بن فاضل قال فبينما هما في هذه الحالة وإذا بسعيدة نزلت بي في وسط الغليون فرأني أخواي فعانقاني وفرحاً بي وصاروا يقولان يا أخانا كيف حالك فيما جرى لك أن قلبنا مشغولٌ عليك فقالت سعيدة أن كان قلبكما عليه أو كنتما تحبانها ما كنتما رميمناه في البحر وهو نائمٌ ولم اختارا لكما موتة تموتانها وقبضت عليهما وأرادت قتلتهما فصاحا وقالوا في عرضك يا أخانا فصرت أتدخل عليها وأقول لها أنا واقع في عرضك لا تقتلي أخواي وهي تقول لا بد من قتلتهما لأنهما خائنان فما زلت لأطفها حتى قالت من شأن خاطرك لا أقتلها ولكن أسحرهما. ثم أخرجت طاسة وحطت فيها ماءً من ماء البحر وتكلمت عليها بكلام لا يفهم وقالت أخرجنا من الصورة البشرية إلى الصورة الكلبية ثم رشتها بالماء فانقلبنا كلبين كما تراهما يا خليفة الله ثم التقت إليهما وقال أحقاً ما قلت يا أخواي فنكسا رؤوسهما كأنهما يقولان له صدقت ثم قال يا أمير المؤمنين وبعد أن سحرتهم كلبين قالت لمن كان من الغليون أعلموا أن عبد الله ابن فاضل هذا صار أخي وأنا أشق عليه كل يوم مرة أو مرتين وكل من خالفه منكم أو خالف أمره وأذاه باليد أو باللسان فأني أفعل به ما فعلت بهذين الخائنين وأسحره كلباً حتى ينقضي عمره وهو في صورة الكلب ولا يجد له خلاصاً فقال لها الجميع يا سيدتي نحن كلنا عبيده وخدمه ولا نخالفه ثم أنها قالت لي إذا دخلت البصرة فتفتقد جميع مالك فإن كان نقص منه شيء فأعلمني وأنا أجيء لك به من أي شخص كان ومن أي مكان كان ومن كان أخذه أسحره كلباً ثم بعد أن نخزن أموالك ضع في رقبة كل من هذين الخائنين غلا وأربطهما في ساق السرير وأجعلهما في سجن وحدهما وكل ليلة في نصف الليل أنزل إليهما وأضرب كل واحدٍ منهما علقه حتى يغيب عن الوجود وأن مضت ليلة ولم تضربهما فأني أجيء لك وأضربك علقه وبعد ذلك اضربهما فقلت لهما سمعاً وطاعة ثم أنها قالت لي اربطهما في الحبال حتى تدخل البصرة فوضعت في رقبة كل واحدٍ منهما حبلاً، ثم ربطتهما في الصاري وتوجهت هي إلى حال سبيلها وفي ثاني يوم دخلت البصرة وطلع التجار لمقابلتي وسلموا علي ولم يسأل أحدٌ عن أخواي وإنما صاروا ينظرون إلى الكلاب ويقولون لي يا فلان ماذا تصنع بهذين الكلبين اللذين جنبت بهما معك فأقول لهم أني رببتهما في هذه السفرة وجنبت بهما معي فيضحكون عليهما ولم يعرفوا أنهما أخواي.

ثم أني وضعتهم في خزانة والتهيت تلك الليلة في توزيع الأحمال التي فيها القماش والمعادن وكان عندي التجار لأجل السلام فاشتغلت ولم أضربهما ولم أربطهما بالسلاسل ولم أعمل معهما ضرراً.

ثم نمت فما أشعر إلا وسعيدة بنت الملك الأحمر قالت لي: أما قلت لك ضع في رقابهما السلاسل وأضرب كل واحدٍ منهما علقه ثم أنها قبضت علي وأخرجت السوط وضربتني علقه حتى غبت عن الوجود وبعد ذلك ذهبت إلى المكان الذي فيه أخواي وضربت كل واحدٍ منهما بالسوط حتى أشرفا على الموت وقالت كل ليلة أضرب كل واحدٍ منهما علقه مثل هذه العلقة وأن مضت ليلة ولم تضربهما فأني أضربك فقلت يا سيدتي في غد أحط السلاسل في رقابهما والليله الآتية أضربهما ولا أرفع الضرب عنهما ليلة واحدة فأكدت علي في الوصية بضربهما فلما أصبح الصباح لم يهن علي أن أضع السلاسل في رقابهما فذهبت إلى صائغ وأمرته أن يعمل لهما غلين من الذهب فعملهما وجنبت بهما ووضعتهما في رقابهما وربطهما كما أمرتني وفي ثاني ليلة ضربتهما قهراً عني وكانت هذه الحركة في مدة خلافة المهدي الثالث من بني العباس، وقد اصطحبت معه بإرسال الهدايا فقلندي ولاية وجعلني نائباً في البصرة ودمت على هذه الحالة مدةً من الزمان.

ثم أني قلت في نفسي لعل غيظها قد برد فرتكتها ليلة من غير ضرب فأتنتي وضربتني علقه لم أنس حرارتها بقية عمري فمن ذلك الوقت لم أقطع عنهما الضرب مدة خلافة المهدي ولما توفي المهدي توليت أنت بعده وأرسلت إلي تقرير الاستمرار على مدينة البصرة وقد مضى لي اثنا عشر عاماً وأنا في كل ليلة أضربهما قهراً

عني وبعدما أضربهما أخذ بخاطرهما وأعتذر إليهما وأطعمهما وأسقيهما وهما محبوسان ولم يعلم بهما أحدٌ من خلق الله تعالى حتى أرسلت إليّ أبا اسحق النديم من أجل الخراج فأطلع على سري ورجع إليك فأخبرك فأرسلته ثانياً تطلبني وطلبتهما فأجبت بالسمع والطاعة وأتيت بهما بين يديك ولما سألتني عن حقيقة الأمر أخبرتك بالقصة وهذه حكايتي. فعند ذلك تعجب الخليفة هارون الرشيد من حال هذين الكلبين ثم قال وهل أنت على هذه الحالة سامحت أخويك مما صدر منهما في حقك و عفوت عنهما أم لا فقال يا سيدي سامحهما الله وأبرأ ذمتهما في الدنيا والآخرة وأنا محتاجٌ لكونهما يسامحاني لأنه مضى لي اثنا عشر عاماً وأنا أضربهما في كل ليلةٍ علقه فقال الخليفة يا عبد الله أن شاء الله تعالى أنا أسعى في خلاصهما ورجوعهما آدميين كما كانا أولاً وأصلح بينكم وتعيشون بقية أعماركم أخوةً متحابين، وكما أنك سامحتهما يسامحانك فخذهما وأنزل إلي منزلك وفي هذه الليلة لا تضربهما وفي غدٍ ما يكون إلا الخير.

فقال له يا سيدي وحياة رأسك أن تركتهما ليلةً واحدة من غير ضرب تأتيني سعيدة وتضربني وأنا ما لي جسدٌ يتحمل ضرباً فقال لا تخف فأنا أعطيك خط يدي فإذا أتتك فأعطاها الورقة فإذا قرأتها عفت عنك كان الفضل لها وأن لم تطع أمري كان أمرك إلى الله ودعها تضربك علقه وقدر أنك نسيتهما من الضرب وضربتك بهذا السبب وإذا حصل ذلك وخالفنتني فإن كنت أنا أمير المؤمنين فأني أعمل خلاصي معها، ثم أن الخليفة كتب لها ورقة مقدار إصبعين وبعدما كتبها ختمها وقال يا عبد الله إذا أتتك سعيدة فقل لها أن الخليفة ملك الأنس أمرني بعدم ضربهما وكتب لي هذه الورقة وهو يقرئك السلام وأعطاها المرسوم ولا تخش بأساً.

ثم أخذ عليه العهد والميثاق أنه لا يضربهما فأخذهما وراح بهما إلى منزله وقال في نفسه يا ترى ما الذي يصنعه الخليفة في حق بنت سلطان الجن إذا كانت تخالفه وتضربني في هذه الليلة ولكن أنا صابرٌ على ضربي علقه وأريح أخواني في هذه الليلة ولو كان يحصل لي من أجلهما العذاب، ثم أنه تفكر في نفسه وقال له عقله لولا أن الخليفة مستندٌ إلى سندٍ عظيم ما كان يمنعك عن ضربهما.

ثم أنه دخل منزله ونزع الأغلال من رقاب أخويه وقال توكلت على الله وصار يأخذ بخاطرهما ويقول لهما لا بأسٌ عليكما فإن الخليفة الخامس من بني العباس قد تكفل بخلاصكما وأنا قد عفوت عنكما وأن شاء الله تعالى يكون الأوان قد آن وتخلصان في هذه الليلة المباركة فأبشرا بالهناء والسرور، فلما سمعا هذا الكلام صار يعويان مثل عواء الكلاب.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة التاسعة والسبعين بعد التسعمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن عبد الله بن فاضل قال لأخويه أبشرا بالهناء والسرور فلما سمعا هذا الكلام صاروا يعويان مثل عواء الكلاب ويمرغان خدودهما على أقدامه كأنهما يدعوان له ويتواضعان بين يديه فحزن عليها وصار يملس بيده على ظهورهما إلى أن جاء وقت العشاء فلما وضعوا السفرة قال لهما أجلسا فجلسا يأكلان معه على السفرة فصارت أعوانه باهتين يتعجبون من أكله مع الكلاب ويقولون هل هو مجنون أو مختل العقل كيف يأكل نائب مدينة البصرة مع الكلاب وهو أكبر من وزير أما يعلم أن الكلب نجسٌ وصاروا ينظرون إلى الكلبين وهما يأكلان معه أكل الحشمة ولا يعلمون أنهما أخواه وما زالوا يتفرجون على عبد الله والكلبين حتى فرغوا من الأكل.

ثم أن عبد الله غسل يديه فمد الكلبان أيديهما وصارا يغسلان وكل من كان واقفاً صار يضحك عيهما ويتعجب ويقولون لبعضهم عمرنا ما رأينا الكلاب تأكل وتغسل أيديهما بعد أكل الطعام ثم أنهما جلسا على المراتب بجنب عبد الله بن فاضل ولم يقدر أحدٌ أن يسأله عن ذلك واستمر الأمر هكذا إلى نصف الليل ثم صرف الخدم وناموا ونام كل كلبٍ على سريير وصار الخدم يقولون لبعضهم أنه نام ونام معه الكلبان وبعضهم يقول حيث أكل مع الكلاب على السفرة فلا بأس إذا ناما معه وما هذا إلا حال المجانين. ثم أنهم لم يأكلوا مما بقي في السفرة من الطعام شيئاً وقالوا كيف نأكل فضلة الكلاب ثم أخذوا السفرة بما فيها وروموها وقالوا أنها نجسةٌ هذا ما كان من أمرهم وأما ما كان من أمر عبد الله بن فاضل فإنه لم يشعر إلا والأرض قد انشقت وطلعت سعيدة وقالت يا عبد الله لأي شيءٍ مما ضربتكما في هذه الليلة ولأي شيءٍ نزلت الأغلال من أعناقكما هل فعلت ذلك عناداً لي أو استخفافاً بأمري ولكن أنا الآن أضربك وأسحرك كلباً مثلهما فقال لها يا سيدتي أقسمت عليك بالنقش الذي على خاتم سليمان بن داود عليهما السلام أن تحملي علي حتى أخبرك بالسبب ومهما أردتبه بي فأفعله فقالت له أخبرني فقال لها أما سبب عدم ضربهما فإن ملك الأنس الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد أمرني أن لا أضربهما في هذه الليلة وقد أخذ علي موثيق وعهود على ذلك وهو يقرئك السلام وأعطاني مرسوماً بخط يده

وأمرني أن أعطيك إياه فامتثلت مرةً وأطعته وطاعة أمير المؤمنين واجبة وها هو المرسوم فخذيه واقرئيه وبعد ذلك افعلني مرادك.

فقلت هاته فناولتها المرسوم ففتحته وقرأته وقرأت مكتوباً بسم الله الرحمن الرحيم من ملك الأنس هارون الرشيد إلى بنت الملك الأحمر سعيدة أما بعد فإن هذا الرجل قد سامح أخويه وأسقط حقه عنهما وقد حكمت عليهما بالصلح وإذا وقع الصلح ارتفع العقاب فإن اعترضتمونا في أحكامنا اعترضناكم في أحكامكم وخرقنا قانونكم وأن امتثلتم أمرنا ونفذتم أحكامنا فأنا ننفذ أحكامكم وقد حكمت عليك بعدم التعرض لهما فإن كنت تؤمنين بالله ورسوله فعليك بطاعة ولي الأمر وأن عفوت عنهما فأنا أجازيك بما يقدرني عليه ربي وعلامة الطاعة ترفعي سحرك عن هذين الرجلين حتى يقبلاني علي خالصين وأن لم تخلصيهما فأنا أخلصهما قهراً عنك بعون الله تعالى.

فلما قرأت ذلك الكتاب قالت يا عبد الله لا أفعل شيئاً حتى أذهب إلى أبي وأعرض عليه مرسوم ملك الأنس وأرجع إليك بالجواب بسرعة ثم أشارت بيدها إلى الأرض فانشقت ونزلت فيها فلما ذهبت صار قلب عبد الله فرحاً وقال أعز الله أمير المؤمنين ثم أن سعيدة دخلت على أبيها وأخبرته بالخبر وعرضت عليه مرسوم أمير المؤمنين قبله ووضع على رأسه ثم قرأه وفهم ما فيه وقال يا بنتي أن أمر ملك الأنس علينا ماض وحكمه لنا نافذ ولا نقدر أن نخالفه فأمضي إلى الرجلين وخلصيهما في هذه الساعة وقولي لهما أنتما في شفاعة ملك الأنس فإنه أن غضب علينا أهلنا عن آخرنا فلا تحملينا ما لا نطيق فقالت له يا أبت إذا غضب علينا ملك الأنس ماذا يصنع بنا فقال لها يا بنتي أنه يقدر علينا من وجوه الأول لله من البشر فهو مفضلٌ علينا والثاني أنه خليفة الله والثالث أنه مصرٌّ على ركعتي الفجر فلو اجتمعت عليه طوائف الجن من السبع أرضين لا يقدر أن يصنعوا به مكروهاً فإن غضب علينا يصلي ركعتي الفجر ويصيح علينا صيحةً واحدةً فنجتمع بين يديه طائعين ونصير كالغنم بين يدي الجزار أن شاء فأمرنا بالرحيل من أوطاننا إلى أرض موحشة لا نستطيع المكث فيها وأن شاء هلكنا أمر بهلاك أنفسنا فيهلك بعضنا بعضاً فنحن لا نقدر على مخالفة أمره فإن خالفنا أمره أحرقتنا جميعاً وليس لنا مفرٌ من بين يديه وكذلك كل عبد داوم على ركعتي الفجر فإن حكمه نافذٌ فينا فلا تتسببي في هلاكنا من أجل رجلين بل أمضي وخلصيهما قبل أن يحيق بنا غضب أمير المؤمنين فرجعت إلى عبد الله بن فاضل وأخبرته بما قال أبوها وقالت له قبل لنا أيادي أمير المؤمنين وأطلب لنا رضاه ثم أنها أخرجت الطاسة ووضعت فيها الماء وعزمت عليها وتكلمت بكلماتٍ لا تفهم ثم رشتها بالماء وقالت أخرجنا من الصورة الكلبية إلى الصورة البشرية فعدا بشرين كما كانا وأنفك عنهما السحر وقالوا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ثم وقعا على يد أخيهما وعلى رجليه يقبلانها ويطلبان منه السماح، فقال لهما سامحاني أنتما ثم أنهما تابا توبة نصوحاً وقالوا قد غرنا إبليس اللعين وأغوانا السمع وربنا جزانا بما نستحقه والعفو من شيم الكرام وصارا يستعطافان أخاهما ويكياناً ويتندمان على ما وقع منهما ثم أنه قال لهما ما فعلتما بزوجتي التي جئت بها من مدينة الحجر فقالوا لما أغوانا الشيطان ورميناك في البحر وقع الخلاف بيننا وصار كل واحد منا يقول أنا أتزوج بها. فلما سمعت كلامنا ورأت اختلافنا وعرفت أننا رميناك في البحر طلعت من الخزانة وقالت لا تختصما من أجلي فأني لست لواحد منكما أن زوجي راح البرح وأنا أتبعه ثم أنها رمت نفسها في البحر وماتت فقال أنها ماتت شهيدة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم أنه بكى عليها بكاءً شديداً وقال لهما لا يصح منكما أن تفعلوا معي هذه الفعال وتعدا ما بي لزوجتي فقالا أننا أخطانا وربنا جازانا على ما فعلنا وهذا شيء قدره الله علينا قبل أن يخلقنا فقبل عذرهما ثم أن سعيدة قالت أيفعلان معك هذه الفعال وأنت تعفو عنهما فقال يا أختي من قدر وعفا كان أجره على الله، فقالت خذ حذرنا منهم فأنهم خانقين، ثم ودعته وانصرفت.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكنت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الثمانين بعد التسعمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن عبد الله لما حذرتة سعيدة من أخويه ودعته وانصرفت إلى حال سبيلها فبات عبد الله بقية تلك الليلة هو وأخواه على أكل وشربٍ وبسطٍ وانشرح صدرهما. فلما أصبح الصباح أدخلهما الحمام وعند خروجهما من الحمام أليس كل واحد منهما بدلةً تساوي جملةً من المال ثم أنه طلب سفرة طعام فقدموها بين يديه فأكل هو وأخواه، فلما نظرهما الخدام وعرفوا أنهما أخواه سلموا عليهما وقالوا للأمر عبد الله: يا مولانا هناك الله باجتماعك على أخويك العزيزين وأين كانا في هذه المدة؟ فقال لهم: هما اللذان رأيتوهما في صورة كلبين والحمد لله الذي خلصهما من السجن والعذاب الأليم ثم أنه أخذهما وتوجه إلى ديوان الخليفة هارون الرشيد ودخل بهما عليه وقبل الأرض بين يديه ودعا له بدوام العز والنعم وإزالة البؤس والنقم، فقال له: مرحباً بك يا أمير المؤمنين أعز الله قدرك أي لما أخذت أخوي وذهبت بهما إلى منزلي اطمأنيت عليهما بسببك حيث تكفلت بخلاصهما وقلت في نفسي أن الملوك لا يعجزون عن أمر يجتهدون فيه أن العناية تساعدهم ثم نزلت الأغلال من رقابهما وتوكلت على الله وأكلت أنا وإياهما على السفرة، فلما

رأني أتباعي أكل معهما وهما في صورة كلبين استخفوا عقلي وقالوا لبعضهم لعله مجنونٌ كيف يأكل نائب البصرة مع الكلاب وهو أكبر من الوزير ورموا بما فضل من السفارة وقالوا لا نأكل ما بقي من الكلاب وصاروا يسفّهون رأبي وأنا أسمع كلامهم ولا أرد عليهم جواباً لعدم معرفتهم أنهم أخواي ثم عرفتهم. وعندما جاء وقت النوم طلبت النوم فلم أشعر إلا بالأرض قد انشقت وخرجت سعيدة بنت الملك الأحمر وهي غضبانة علي وعيناها مثل النار، ثم أخبر الخليفة بجميع ما وقع منها ومن أبيها وكيف أخرجتهما من الصورة الكلبية إلى الصورة البشرية، ثم قال: وها هما بين يديك يا أمير المؤمنين، فالتفت الخليفة فرأهما شابيين كالمقرين فقال الخليفة: جزاك الله عني خيراً يا عبد الله حيث أعلمتني بفائدة ما كنت أعلمها أن شاء الله لا أترك صلاة هاتين الركعتين قبل طلوع الفجر ما دمت حياً.

ثم أنه عنف شقيقاً عبد الله بن فاضل على ما سلف منهما في حقه فاعتذرا قدام الخليفة، فقال لهم: تصافحوا وسامحوا بعضكم، وعفا الله عما سلف ثم التفت إلى عبد الله وقال: يا عبد الله أجعل أخويك معينين لك وتوصل بهما وأوصاهما بطاعة أخيهما. ثم أنعم عليهم وأمرهم بالارتحال إلى مدينة البصرة بعد أن عطاهم أنعاماً جزيلاً فنزلوا من ديوان الخليفة مجبورين وفرح الخليفة بهذه الفائدة التي استفادها من هذه الحركة وهي الدوام على صلاة ركعتي الفجر، وقال: صدق من قال: مصائب قوم عند قوم فوائد. هذا ما كان من أمرهم مع الخليفة. وأما ما كان من أمر عبد الله بن فاضل فإنه سافر من مدينة بغداد ومعه أخواه بالإعزاز والإكرام وعلو المقام إلى أن دخلوا مدينة البصرة فخرج الأكابر والأعيان لملاقاتهم وزينوا لهم المدينة وأدخلوهم بموكب ليس له نظيرٌ وصار الناس يدعون له وهو ينثر الذهب والفضة وصار جميع الناس صائحين بالدعاء له ولم يلتفت أحدٌ إلى أخويه، فدخلت الغيرة والحسد في قلوبهما ومع ذلك كان عبد الله يداريهما مداراة العين الرمضاء كلما داراهما لا يزدادان إلا بغضاً له وحسداً فيه. ثم أنه أعطى كل واحدٍ منهما سريةً ليس لها نظيرٌ وجعلهما بخدم وحشم وجواري وعبيدٍ سودٍ وبيضٍ من كل نوع أربعين وأعطى كل واحدٍ منهما خمسين جواداً من الخيل الجياد وصار لهما جماعةٌ وأتباعٌ، ثم أنه عين لهما خراجاً ورتب لهما رواتب وجعلهما معينين له وقال لهما: أنا وأنتما سواء ولا فرق بيني وبينكما.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الواحدة والثمانين بعد التسعمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن عبد الله رتب لأخويه الرواتب وجعلهما معينين له وقال لهما أنا وأنتما سواء ولا فرق بيني وبينكما فالحكم بعد الله والخليفة لي ولكما فاحكما في البصرة في غيابي وحضوري وحكمكما نافذ ولكن عليكم بتقوى الله في الأحكام وإياكما والظلم فإنه أن دام دمر وعليكما بالعدل فإنه أن دام عمر، ولا تظلما العباد فيدعو عليكما وخبركما يصل إلى الخليفة فتحصل فضيحة في حقي وحكمكما فلا تتعرضا لظلم أحدٍ والذي تطمعان فيه من أموال الناس خذاه من مالي زيادةً على ما تحتاجان إليه ولا يخفى عليكما ما ورد في الظلم في حكم الآيات.

ثم أنه صار يعظ أخويه ويأمرهما بالعدل وينهاهما عن الظلم حتى ظن أنهما أحباه بسبب بذل النصيحة لهما ثم أنه ركن إليهما وبالغ في إكرامهما ومع إكرامه لهما ما ازدادا إلا حسداً له وبغضاً فيه.

وأما أخويه ناصرًا ومنصورًا فأنهما اجتمعا مع بعضهما فقال ناصرٌ لمنصور: يا أخي إلى متى ونحن تحت طاعة أخينا عبد الله وهو في هذه السيادة والإمارة وبعدما كان تاجراً صار أميراً وبعدما كان صغيراً صار كبيراً ونحن لم نكبر ولم يبق لنا قدرٌ ولا قيمةٌ وها هو ضحك علينا وعملنا معينين له ما معنى ذلك؟ اليس أننا نخدمه ومن تحت طاعته وما دام طيباً لا ترتفع درجاتنا ولا يبقى لنا شأنٌ فلا يتم غرضنا إلا إن قتلناه وأخذنا أمواله ولا يمكن أخذ هذه الأموال إلا بعد هلاكه فإذا قتلناه نسود ونأخذ جميع ما في خزائنه من الجواهر والمعادن والذخائر وبعد ذلك نقسمها فيما بيننا ثم نهيء هدية للخليفة ونطلب منه منصب الكوفة وأنت تكون نائب البصرة وأنا أكون نائب الكوفة أو أنك تكون نائب الكوفة وأنا أكون نائب البصرة ويبقى لكل واحدٍ منا صولةٌ وشأنٌ ولكن لا يتم لنا ذلك إلا إذا أهلكناه.

فقال منصور: أنك صادقٌ فيما قلت ولكن ماذا نصنع معه حتى نقتله؟ فقال: نعمل ضيافةً عند أحدنا ونعزمه إليها ونخدمه غاية الخدمة ثم نسأمره بالكلام ونحكي له حكاياتٍ ونكاتٍ ونوادرٍ إلى أن يذوب قلبه من السهر ثم نفرش له حتى يرقد فإذا رقد نبرك عليه وهو نائمٌ فنحنقه ونرميه في البحر ونصيح قائلين: أن أخته الجنية أنته وهو قاعدٌ يتحدث بيننا وقالت له: يا قطاعة الأنس ما مقدارك حتى تشكوني إلى أمير المؤمنين أتظن أننا نخاف منه فكما أنه ملكٌ نحن ملوكٌ وأن لم يلزم أدبه في حقنا قتلناه أبيض قتلةً، ولكن بقيت أنا أقتلك حتى ننظر ما يخرج من يد أمير المؤمنين.

ثم خطفته وشقت الأرض ونزلت به، فلما رأينا ذلك غشي علينا ثم استنفقتا ولم ندر ما حصل له، وبعد ذلك نرسل إلى الخليفة ونعلمه فإنه يولينا مكانه وبعد مدة نرسل إلى الخليفة هدية سنوية ونطلب منه حكم الكوفة وواحد منا يقيم في البصرة والآخر يقيم في الكوفة وتطيب لنا البلاد ونقهر العباد ونبلغ المراد، فقال: نعم ما أشرت يا أخي.

فلما اتفقا على قتل أخيهما صنع ناصر ضيافة وقال لأخيه عبد الله: يا أخي أعلم أنني أخوك ومرادي أنك تجبر بخاطري أنت وأخي منصور وتأكلا ضيافتني في بيتي حتى أفترج بك. ويقال: أن الأمير عبد الله أكل ضيافة أخيه ناصر لأجل أن يحصل له بذلك جبر خاطر، فقال له عبد الله: لا بأس يا أخي ولا فرق بيني وبينك وبينك بيتي ولكن حيث عزمتمني فما يأبي الضيافة إلا اللئيم.

ثم التفت إلى أخيه منصور وقال له: أتذهب معي إلى بيت أخيك ناصر وتأكلا ضيافته وتجبر بخاطره؟ فقال له: يا أخي وحياء رأسك ما أروح معك حتى تحلف لي أنك بعدما تخرج من بيت أخي ناصر تدخل بيتي وتأكل ضيافتي فهل ناصر أخوك وأنا لست أخاك فكما جبرت بخاطره تجبر بخاطري فقال: لا بأس بذلك حباً وكرامةً فمتى خرجت من دار أخيك ادخل دارك وكما هو أخي أنت أخي. ثم أن ناصر قبل يده أخيه عبد الله ونزل من الديوان وعمل الضيافة وفي ثاني يوم ركب عبد الله وأخذ معه جملة من العسكر وأخاه منصور وتوجه إلى دار أخيه ناصر وجلس هو وجماعته وأخوه قدم لهم السمات ورحب بهم، فأكلوا وشربوا وتلذذوا وطربوا وارتفعت السفرة وغسلت الأيدي وأقاموا ذلك اليوم على أكل وشرب وبسط ولعب إلى الليل.

فلما تعشوا وصلوا المغرب والعشاء جلسوا على منادمة وصار منصور يحكي حكايته وناصر يحكي وعبد الله يسمع، أخوكانوا في قصر ودهم وبقية العسكر في مكان آخر، ولم يزلوا في نكت وحكايات ونوادير وأخبار حتى ذاب قلب أخيهما عبد الله من السهر وغلب عليه النوم.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الثانية والثمانين بعد التسعمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن عبد الله لما طال عليه السهر وأراد النوم فرشوا له الفراش ثم قلع ثيابه ونام وناما بجانبه على فرش آخر وصبرا عليه حتى استغرق في النوم، فلما عرفا أنه استغرق في النوم قاما وبركا عليه فأفاق فرأهما باركين على صدره فقال لهما: ما هذا يا أخوأي؟ فقالا له: ما نحن أخواك ولا نعرفك يا قليل الأدب وقد صار موتك أحسن من حياتك، وحط أيديهما في رقبتة وخنقاه فغاب عن الدنيا ولم يبق فيه حركة فظننا أنه مات وكان القصر على البحر فرموه في البحر.

فلما وقع في البحر سخر الله له درفيلاً كان معتاداً على مجيئه تحت ذلك القصر لأن المطبخ كان فيه طاقة تشرف على البحر وكانوا كلما ذبحوا الذبائح يرمون تعاليفها في البحر من تلك الطاقة فيأتي ذلك الدر فيل ويلتقطها من على وجه الماء فأعتاد على ذلك المكان، وكانوا في ذلك اليوم قد رموا أسقاطاً كثيرةً بسبب الضيافة فأكل ذلك الدر فيل زيادةً عن كل يوم حصلت له فلما سمع الخبطة في البحر أتى مسرعاً فرأه ابن آدم فهاده الهادي وحمله على ظهره وشق به في وسط البحر ولم يزل سابحاً به حتى وصل إلى البر من الجهة الثانية وألقاه على البر وكان ذلك المكان الذي أطلعته فيه على قارة الطريق فمرت به قافلة فرأوه مرمياً على جانب البحر فقالوا: هنا غريق ألقاه البحر على الشاطئ.

واجتمع عليه جماعة من تلك القافلة يتفرجون عليه، وكان شيخ القافلة رجلاً من أهل الخير وعارفاً بجميع العلوم وخبيراً بعلم الطب وصاحب فراسة صادقة فقال لهم: يا ناس ما الخبر؟ فقالوا: هذا غريق ميت، فأقبل عليه وتأمله وقال: يا ناس هذا الشاب فيه الروح وأنه من خيار أولاد الناس الأكابر وتربية العز والنعم وفيه الرجاء أن شاء الله تعالى.

ثم أنه أخذه وألبسه بدلة وأدناه وصار يعالجه ويلاطفه مدة ثلاث مراحل حتى أفاق ولكن حصلت له خضة فغلب عليه الضعف وصار شيخ القافلة يعالجه بأعشاب يعرفها، ولم يزلوا مسافرين مدة ثلاثين يوماً حتى بعدوا عن البصرة بهذه المسافة وهو يعالج فيه، ثم وصلوا مدينة يقال لها مدينة عوج وهي في بلاد العجم فنزلوا في خان وفرشوا له ورفد فبات تلك الليلة بين وقد أفاق الناس من أنبينه، فلما أصبح الصباح أتى بواب الخان إلى شيخ القافلة وقال له: ما شأن هذا الضعيف الذي عندك فإنه أفلقتنا؟ فقال: هذا رأيت في الطريق على جانب البحر غريقاً فعالجته وعجزت ولم يشف، فقال له: أعرضه على الشيخة راجحة، فقال: ومن تكون الشيخة راجحة؟

فقال: عندنا بنتٌ بكرٌ شبيخةٌ وهي عذراء جميلة اسمها الشبيخة راجحة كل من به داءٌ يذهبون به إليها فيبيت عندها ليلةً واحدةً فيصبح معافى كأنه لم يكن فيه شيءٌ يضره. فقال له شيخ القافلة: دلني عليها، فقال له: أحمل مريضك، فحمله ومشى بواب الخان قدامه إلى أن وصل إلى زرايةٍ فرأى ناسٌ داخلين بالنذر وناس خارجين فرحانين فدخل بواب الخان حتى وصل إلى الستارة وقال: دستور يا شبيخة راجحة خذي هذا المريض أدخليه من داخل هذه الستارة، فقالت له: ادخل فدخل ونظر إليها فرأى زوجته التي جاء بها من مدينة الحجر، فعرفها وعرفته وسلمت عليه فقال لها: من أتى بي إلى هذا المكان؟ فقالت له: لما رأيت أخويك رمياك في البحر وتخاصما علي رميت نفسي في البحر فتناولني شيخي الخضر أبو العباس وأتى بي إلى هذه الزاوية وأعطاني الأذن بشفاء المرضى ونادى في المدينة: كل من كان له داءٌ فعليه بالشبيخة راجحة وقال لي: أقيمي في هذا المكان حتى يؤون الأوان ويأتي إليك زوجك، فصار كل مريض يأتي أكبسه فيصبح شافيا وشاع ذكرى بين العالم وأقبل الناس علي بالنذور وعندي من الخير كثير وأنا في عز وإكرام وجميع أهل هذه البلاد يطلبون مني الدعاء.

ثم أنها كبست الرجل المريض فشفي بقدرة الله تعالى وكان الخضر عليه الصلاة والسلام يحضر عندها في كل ليلةٍ جمعةً وكانت تلك الليلة التي اجتمع فيها ليلة الجمعة، فلما جن الليل جلست هي وإياه بعدما تعشيا من أفرح المأكول ثم قعدا ينتظران حضور الخضر، فبينما هما جالسان وإذا به قد أقبل عليهما فحملهما من الزاوية ووضعهما في قصر عبد الله بن فاضل بالبصرة ثم تركهما وذهب.

فلما أصبح الصباح تأمل عبد الله في القصر فرآه قصره فعرفه وسمع الناس في ضجةٍ فنظر من الشباك فرأى شقيقه مصلوبين كل واحدٍ منهما على خشبةٍ والسبب في ذلك أنهما لما رمياه في البحر ندما وأصبحا بيكيان ويقولان: أن أختنا خطفتها الجنية، ثم هيئا هديا وأرسلها إلى الخليفة وأعلماه بهذا الخبر وطلبا منه منصب البصرة فأرسل وأحضرهما عنده وسألتهما فأعلماه كما ذكرنا فاشتد غضب الخليفة، فلما جن الليل صلى ركعتين قبل الفجر على عادته وصاح على طوائف الجن فحضروا بين يديه طائعين فسألهم عن عبد الله فحلفوا له أنه لم يتعرض له أحداً منهم وقالوا له: ما عندنا علمٌ به، فأنت سعيدة بنت الملك الأحمر وأعلمت الخليفة بقصته فصرفهم، وفي ثاني يوم رمى ناصرأ ومنصورأ تحت الضرب فأقرا على بعضهما فغضب عليهما الخليفة وقال: خذوهما إلى البصرة واصلبوهما قدام قصر عبد الله، هذا ما كان من أمرهما.

وأما ما كان من أمر عبد الله فإنه أمر بدفن شقيقه ثم ركب وتوجه إلى بغداد وأفاد الخليفة بحكايته وما فعل معه أخواه من الأول إلى النهاية فتعجب الخليفة من ذلك وأحضر الكاتب والشهود وكتب كتابه على البنت التي جاء بها من مدينة الحجر وأقام معها في البصرة إلى أن أتاهم هازم اللذات ومفرق الجماعات فسبحان الحي الذي لا يموت.